اللغة العربية على المحك

الأستاذ خليل الهنداوي
حلب (سوريا)

حقا لكل لغة مشاكلها ، ومن يطلع على مسيرة اللغات فى العالم ير أن هناك فئة من اللغات تحيا حياة عامة ، منسابة ، وفئة منهـا تحيـا فى حيز ضيق ، يتناول اصحاب هذه اللغة ، واهلها .

وهذا ينطبق على اللغة العربية انطباقه علـى بقية اللغات . واللغة العربية اليوم تحيا فى هـذا الجزء الضيق ، واذا ابتعدت قليلا عنه كان انفراجها فى دائرة الدراسات التاريخية والاجتماعية وقليل منه فى الدراسات العلمية ، والمصطلحات التقنية .

وقد مرت اللغة العربية بدور ، كانت فيه لغـة انسانية ، حين تجاوزت التخوم العربية ، واصبـح ادبها والعلم فيها ذائعا فى الاقطار التـي مسحهـا الفتح العربي اولا ، والدين ثانيا .

والاسلام ، بطبيعته ، مرتبط باللغة العربية ، ولا غنى للمسلم مهما كان اصله ومنشؤه عن المامـه باللغة العربية سواء كان قارئا للقرآن فى تأدية شعائر الدين ، أو متفهما لاصوله . وهذه مزية لم تحظ بهـا لغة اخرى فى العالم . وكان من وراء ذلك ان عم نفوذ اللغة العربية واسهم فى التأليف بها جماعات عربيـة ، وغيـر عربيـة .

ولما انحسر النفوذ العربي عن هذه الاقطـار انحسر نفوذ اللغة فيها ، كوسيلة للتعبير ، والتأليف. ولم يبق منها الا رمزها المتصل بالديـن .

وقد ينطبق هذا المثل على لغة ، تعد اكثر اللغـات انتشارا اليوم ، هي اللغة الانجليزية ، فان تغلغـل الاحتلال الانجليزي فى الاقطار الدانية والنائية ، مهـد لهذه اللغة أن تنتشر وتتوسع ، وتقدم اللغة العلمية بها على الاقل . وقد ظل تأثير هذه اللغة فى الاوساط العلمية والدراسية بهذه الاقطار ، قائما ، حتـى بعد انحسار الاحتلال ، لان هذه الاقطار المتخلفة وجـدت فراغـا كبيـرا ، وجدبا فى لغتها القومية وثقافتها ، فظلت مثابرة على تبني اللغة الانجليزية فى مدارسها العالية ، وجامعاتها . ولا ندري : الى متى تدوم هذه التبعيـة ؟

ويبدو أن الغزو نفسه يمهد لانتشار لغة الغازي، اما تقربا من الغازي ، واما طلبا لاتمام النقص الذي تشعر به ، والا فان هنالك لغـات اخرى واسعة ، لا تقل طواعية ومرونة وغنى عن اللغة الانجليزية ، ولكن لم يرافقها غزو واسع ، يمكن لها ما مكنه الغـزو للغة الانجليزية .

ولذلك تحيا اللغة العربية الآن فى حيز ضيق، هو رقعة العالم العربي ، وهذه الحياة نفسها غير موحدة باصطلاحاتها ، ولا مستقرة فى اشتقاقاتها ، لاختـلاف هذا العالم فى وجهـات ثقافاته .

ولعل من العوامل البارزة فى استقرار اللغات الاجنبية أنها تصدر فى اشتقاقها من منبع واحد ، هو اللغة اللاتينية ، واليونانية القديمة ، وهذا المنبـع وحد مصطلحاتها العلمية والفلسفية ، بينما اللغـة العربية قل اتصالها بهذا المنبـع ، فلذلك جـاءت المشكلة وتعقدت من نتيجة هذا الانقطاع .

* * *

والذي يتأمل تطور اللغة العربية يجـد انـه تطور لا يتخطى الشكلية ، والدوران على النفـس ، فأما البناء فهو باق لا يتبدل ، وما اشبهه ببناء عتيق ، قد تأكلت حجارته ، شأن آثارنا القديمة الشاخصة ، وغطاها طحلب القدم . فالقواعد لا تزال واحدة ، لـم يجرؤ احد أن يخفف ، أو ييسر من قيودها ، أو يقلل من شواذها المتقلقلة . ولم يبق منها الا عملية الاشتقاق ، وهي عملية ناجعة ، لو وجـدت مـن يستغلهـا ، ويفيد منها . ولكن هذه العملية ليست موحـدة فى الاقطار ، اذ نرى كل مجمع لغوي يشتق وفق هـواه واجتهاده ، ثم لا يأخذ أحد بهذا الاشتقاق . ولا تفكر وزارة من وزارات التعليم والثقافة فى تطبيق هـذه المشتقات ، واذاعتها فى الكتب المدرسية التي يأخذ بها الطلاب .

ولذلك: اذا اردنا خيرا وحياة لهذه المصطلحات، يجب :

اولا : العمل على تهذيب القواعد وتخفيف اعبائها .

ثانيا : توحيد جهات الاشتقاق بما يجري مع الطبع والعصر والحاجة .

ثالثا : اذاعة هذه المصطلحات المشتقة ، بكل وسيلة فعالة ، في ابناء الجيل الآتي .

* * *

واما الذين يزعمون أن اللغة العربية عقيمة ، لا تستجيب الى الحياة الحديثة ، تعصبا او لهوى خبيث فيهم ، فقد فاتهم أن اللغة العربية ، بطبيعتها ، لغة مرنة ، غنية ، يدل على ذلك مفرداتها الدقيقة ، وقد امتحنت — ايام النهضة العلمية في العصور العباسية — وثبتت لهذا الامتحان ، وعبرت احسن تعبير عن كل خاطرة ، وتجربة ، ومعنى هذا انها صالحة للتدريس الجامعي بأوسع ما يريد منها هذا التدريس ، ومستعدة للوفاء بالتزامات التعبير عن كل شيء .

وقد اراد الشاعر — حافظ ابراهيم — مرة أن ينبري لهذه المشكلة ، ويعالجها بروح شعرية ، فوضع قصيدته المشهورة ، عن لسان اللغة العربية ، في الشكوى من اهمال ابنائها ، ومما قاله :

ايطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادي بوادي في ربيع حياتي ؟
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي بها ، وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ؟
وتسجيل اسماء لمخترعات
أتوا اهلهم بالمعجزات تفننا
فيا ليتكم تأتون بالكلمات

فالمشكلة التي عاناها الشاعر منذخمسين سنة، لا تزال هي مشكلتنا اليوم ، بل ربما زادت عليها صعوبة وتعقدا ، لانها ليست بمشكلة العجمة التي امتدت زمنا الى لغة المخاطبة ، بتاثير العوامل الغريبة الزائفة التي ضعفت ، وكادت تضمحل ، وانما هي ، في الدرجة الاولى ، مشكلة استحداث اللغة العلمية التي تجاري النهضة العلمية الوثابة .

ومن هذه المشكلة مسالة ايجاد المفردات العلمية الدقيقة للمنجزات والمخترعات المستحدثة وبخاصة في علوم الطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء والاجتماع.

واللغة العربية وقفت موقفا طبيعيا من هذه المستحدثات ، فقد رايناها تعرب بعضها ، فتنجح في البعض ، وتخفق في البعض . فمثلا ، كلمة السيارة والطيارة والهاتف والمذياع كلمات موفقة سائرة ، وهنالك كلمات اخرى كتبت ، ولم ينطق بها لعسرها وبعدها عن المرونة اللفظية ، والروح العلمية .

وان من الواجب على ذوي الاختصاص من علماء وفقهاء لغويين ان يتأملوا في جيراننا ، ممن حالهم كحالنا ، ومشكلتهم كمشكلتنا ، ولغتهم عزيزة عليهم كما لغتنا عزيزة علينا ، كيف قابلوا هذه المشكلة، وحلوها .

ولكن جل ما في الامر ان نقابل المشكلة بتجرد، بدون تحيز ولا تعصب !

وفي الحق أن لكل لغة وجهين : وجهها الادبي الخاص الذي لا تنفصل عنه ، وهذا له مميزاته الشخصية في التعبير والمجاز والتشبيه ، ووجهها العلمي الذي اصبح ، بفضل اتصال اجزاء العالم ، بعضها ببعض وجها عاما متحدا ، ونحن ، فيما نشتق في هذا المجال نتكلف ما لا يستطاع ، لانه تسمية لاشياء لم نخلقها . ولذلك ، كحل صحيح للمشكلة ، يجدر بنا ان نبقي على المصطلحات العلمية ، كما وردت بلغتها الاصلية . وهي — غالبا — مصطلحات تستخدمها كل لغة في العالم ، دون ان تجد في ذلك غضاضة على لغتها . واللغة العربية ذاتها فتحت صدرها اكثر من مرة ، لامثال هذه المصطلحات ، وللالفاظ الغريبة عنها ، في عصور نهضتها ، واحتضنتها وعربتها .

وان في القرآن الكريم الذي انزل عربيا ، الكثير من هذه المفردات التي انتقلت الى العربية من اللغات السريانية المجاورة لها .

هذا ويوفر علينا الزمن ، ويجنبنا الفوضى في التعبير ، ويجعلنا ذلك اقرب الى التيار العلمي العالمي ، كما يجعل المختص منا اقرب الى روح هذه الاشياء ، وايسر اتصالا بمراجعها الغربية التي غدت جزءا لا يتجزأ من دراساتنا العلمية